المبحث الرابع

شخصية مصر الإقليمية

obeikandl.com

obeikandl.com

يمكن اعتبار كتابه «دراسات في العالم العربي» الصادر في عام ١٩٥٨ المشتل الفكري« الذي استنبط «حمدان» منه أفكاره التى زرعها بعد ذلك في كتابة الأول عن شخصية مصر في عام ١٩٦٧، ثم في كتابيه: «العالم الإسلامي المعاصر» (١٩٧١) و«بين أوربا وآسيا..دراسة في النظائر الجغرافية» (١٩٧٣) [١]. فعندما كتب «حمدان» عن النواحي الطبيعية في شخصية العالم العربي أقر بوجود «تجانس مركب» تمثل في ذلك التنافر الذي يأخذ شكل «النظائر الجغرافية» ومنها البيئة الفيضية في كل من مصر والعراق.

وقد قارن حمدان بين هاتين البيئتين مُظهراً أوجه التشابه والاختلاف بينهما، فكلاهما واحة أو شبه واحة: صحراوية (مصر) واستبسية (العراق) ومصر أكثر عزلة من العراق، وتوجيهها طوال تاريخها كان توجيهاً آسيوياً أكثر منه أفريقياً بسبب قربها الشديد من الجزيرة العربية ووجود ممران مهمان: شمال سيناء وطريق قنا – القصير، كذلك كانت مصر كجزء من منطقة الالتحام العربية بحكم موقعها أكثر وقوعاً في أيدي القوى البحرية، بينما العراق أكثر وقوعاً في أيدي القوى البرية.

وعموما رأى «حمدان» أن مصر تنفرد في المركّب الطبيعي والبشري للعالم العربي بخصائص شخصية محلية قوية: فهي بطريقة ما تنتمي إلى كل مكان ولكنها ليست هناك كليةَ، فهي واحة ضد- صحراوية لكنها لا تعتمد علي الماء الجوفي، وهي في أفريقيا موقعاً ولكنها في آسيا وقعاً، وهي تتطلع الي البحر المتوسط ولكنها ترتبط بحوض النيل، ولعلها بموقعها وتوجيهها ومضمونها المتعدد الجوانب خير قطاع في العالم العربي يعبر عن طبيعة المنطقة الجوهرية كلها كمنطقة اتصال طبيعياً وبشرياً [٢].

(١) جمال حمدان ـ دراسات في العالم العربي ـ مرجع سبق ذكره، وشخصية مصر دراسة في عبقرية المكان، مرجع سبق ذكره، وبين أوربا وآسيا..دراسة في النظائر الجغرافية ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ .

(٢) جمال حمدان ـ دراسات في العالم العربي ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٢ .

ملامح شخصية مصر

أقر «حمدان» بصعوبة تركيز الشخصية الإقليمية في معادلة موجزة، لاسيما إذا كانت غنية خصبة كشخصية مصر ، ثم فند الآراء التي قالت بأن مصر «أرض المتناقضات land of paradox» و «أرض الأضداد land of anomalies» و «أرض الطغيان land of tyranny» باعتبارها آراء جزئية وسطحية، ضيقة مخلة أو مختلة، تتعدى التبسيط الساذج إلي التشويه السافر، فالذي رآه في مصر حالة نادرة من الأقاليم والبلاد من حيث السمات والقسمات التي تجتمع فيها، فقد تشبهها بلاد أخرى في بعض سماتها أو قسماتها، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل من مصر مخلوقاً فريداً حقا، يكاد ينتمي إلي كل مكان دون أن يكون فيه تماماً، يأخذ بالحد الأدنى ـ كمياً ـ من الحد الأقصى من الخصائص والسمات نوعياً [1].

لكن مصر تأتي عادة النموذج المثالي والمثل الكلاسيكي في كل شئ تشترك فيه، وبالتالي كثيراً ما تذهب علماً علي نوع أو عينة لأكثر من نمط أو بيئة أو إقليم، وبهذا تعود فتأخذ أحياناً بالحد الأقصي ـ كمياً ـ من الحد الأدنى من الخصائص والسمات، وبهذا وذاك تجمع بين الحد الأوسط ـ علي الأقل ـ من التعميم والتخصيص الجغرافي، من العمومية (الأصولية) والخصوصية (الإقليمية)، وليس معنى ذلك أنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات بقدر ما أنها تجمع بين أطراف متعددة وجوانب كثيرة، بين أبعاد وآفاق واسعة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى» وأمة وسطاً بكل معنى الكلمة، ولقد كانت هذه «الوسطية» هي سر بقاء مصر وحيويتها عبر العصور، وهي التى جعلتها «فلتة جغرافية» لا تتكرر في أي ركن من أركان العالم لكونها شخصية متفردة [2].

(١) جمال حمدان ـ شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ـ الجزء الأول ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ ـ ص ٣٣.
(٢) المرجع السابق ـ ص ٣٤ .

ولقد فسر حمدان شخصية مصر الجغرافية الفلتة هذه بنظرية عامة تتلخص في التفاعل ـ إئتلافاً واختلافاً ـ بين بُعدين أساسين في كيانها هما: الموضع والموقع، والموضع هنا هو البيئة بخصائصها وحجمها وموارها، أي البيئة النهرية الفيضية بطبيعتها الخاصة وجسم الوادي بشكله وتركيبه، أما الموقع فهو صفة نسبية تحددها توزيعات الأرض والناس والإنتاج حولها، وتضبطه العلاقات المكانية التى تربط بين مصر وما حولها، الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة، والموقع فكرة هندسية خارجية غير منظورة [1].

بهذين العنصرين الجوهريين والعلاقة المتغيرة بينهما فسر «حمدان» شخصية مصر موضحاً أنهما يختلفان حينما لا يتكافأ حجم الموضع مع خطورة موقع مصر الحاسم على ناصية العالم، وحين ينتظم الموضع قدراً ما من عزلة، في حين يفرض الموقع فيضاً من الاحتكاك؛ بينما يأتلفان في الأثر عندما يدعوان إلى الوحدة السياسية والمركزية العنيفة، ومن حيث أن زمامها ليس محلياً تماماً، وإنما يرتبط بعوامل خارجية بعيدة، وبين هذا الشدّ والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية نادرة [2].

ملامح الشخصية الإقليمية

متناقضة النهر ـ الصحراء:

مصر مثال البيئة النهرية الكامل، بل البيئة الفيضية بامتياز، وهي «أكثر الفيضيات فيضية» حياتها كلها هي النهر، لا وجود لها بدونه، إن مصر في التحليل الأخير هي: النيل، وفي الوقت ذاته هي عالم الريّ الصناعي التام وتجسيم لبيئة الري المطلقة وللمجتمع الهيدرولوجي البحت، مثال النهر الكامل هي ولكنها بالدرجة ذاتها مثال الصحراء التامة، دولة النهر الأولي وأكثر الدول صحراوية في العالم، وصحاريها عينة جامعة لكل أنواع وأنماط وتنويعات الصحراء الحارة: ليثولوجياً ومورفولوجياً ومناخياً، ومن داخل هذه المتناقضة توجد عدة متناقضات أخري، فمصر تجمع بين

(١) السابق ـ ص ٣٥ .

(٢) السابق ـ ص ٣٦ .

نقيضي: الجفاف والحياة، إنها ماء بلا مطر، لا تنفصل عن إطار الصحراء أكثر مما تبتعد عن البحر، وأرضها مهد الزراعة، أرض المزروعات لا النباتات الطبيعية، فلا حشائش فيها ولا غابات [1].

كذلك لا تعرف مصر اللاندسكيب الطبيعي، ففي طبوغرافية الوادي المجهرية المضغوطة ـ لاسيما الدلتا ـ تختلط التضاريس الطبيعية بالصناعية الي حد كبير، بعدما تحول الانسان المصري في بيئة الري الصناعي الي عامل جغرافي موجب يغير ويشكل ويعيد تركيب اللاندسكيب الطبيعي باستمرار، ومن ثم فلاندسكيب مصر لاندسكيب بشري بقدر ما هو طبيعي، وفي منطقة الواديّ يعادل كل متر من الكنتور عشرات أضعافه في البيئات المضرسة من حيث نتائجه البشرية والحيوية.

التكاثف:

يشبه الغطاء البشري المصري من عمران وسكان إرسابة بشرية سميكة مكثفة متضاغطة لا تعرف الخلل أو الفجوات، فمنذ فجر التاريخ تبدو مصر الواديّ كأنبوب مغلق مكتظ بالسكان المتكدسين كغابة متراصة من البشر في أرخبيل غاص بالحلات والقرى والمدن، إن مصر ـ بكل سهولة وبكل تأكيد ـ كثافة لا مساحة، مثلها هي بمورفولوجيتها الطبيعية مسافة قبل أن تكون مساحة، بللورة محددة الرقعة وإن كانت مفرطة الامتداد [2].

التجانس:

التجانس بعد التكاثف هي الكلمة المفتاح داخل هذه البللورة المركزة المضغوطة، فرغم العديد من الفروقات الموضعية والمحلية والإقليمية يسود أجزاء الوادي قدر غير عادي من التشابه: طبيعياً وبشرياً وماديا، حيث يوزع النهر في هذه البيئة الفيضية كل

(١) السابق ـ المكان نفسه .

(٢) السابق ـ ص ٣٨ .

شئ ويضبط إيقاعه: الغرين والماء، التربة والخصوبة، الزراعة والإنتاج، العمران والسكان، ومن ثم فإن النيل هو جغرافيّ مصر الأول، وبحكم قوانين الإرساب النهريّ تميل هذه التوزيعات الي الحد الأقصي من التجانس والتشابه، والى الحد الأدني من التنافر والتباين، وينطبق ذلك علي مناخ مصر كما ينطبق أيضاً علي تركيبها الجنسي وتوزيعها الأنثروبولوجيّ [1].

وفي كل هذه النواحي والجوانب يوجد بعض التغيير أو الاختلاف ولكن علي هوامش مصر وأطرافها، ومن ثم تبدو مصر الوادي طبيعياً وبشريا، من التضاريس والمناخ وحتي العرق والعقيدة والقرية والمدينة جسماً متجانساً الي أبعد حد ممكن، لا تطور نحو التباين التدريجي إلا علي الأطراف وحدها، حيث تبرز الملامح المحلية أو الابتعادات الخاصة عن الجسم المتجانس، سواء في المناخ أو البيئة الطبيعية أو المحاصيل الزراعية أو الحرف والمهن أو الموانى والمدن أو حتى العناصر الجنسية، لهذا تبدو مصر الوادي ـ من وجهة نظر الجغرافيا الإقليمية ـ إقليماً رئيساً سائداً واحداً علي الجملة، ينقسم فقط الي أقاليم ثانوية باهتة نسبياً، يتحدي الجغرافيّ الذي يتصدى لها بالتصنيف، الأمر الذي يلخص التجانس مثلما يؤكده [2].

الوحدة:

أدي تجانس مصر الي وحدتها، فقد كانت دائماً وعبر التاريخ وقبل أي بلد آخر بقرون أمة ذات شعب واحد تجمعه وطنية واحدة في وطن واحد علي شكل دولة أحادية، لذلك فهي أقدم أمة في أول دولة في التاريخ، وتكمن عوامل التبلور الجغرافيّ ووحدة البيئة الطبيعية والوظيفية والتجانس الأرضي والجنسي والبشري وراء هذه الوحدة السياسية العريقة، فمنذ ولدت هذه الوحدة فإنها قلما عرفت الانفراط أو الانحلال، كما لم تعرف التقسيم لا بالطول ولا بالعرض، لا في ظل الاستقلال ولا

(١) السابق ـ ص ٣٩ .

(٢) السابق ـ المكان نفسه .

حتى تحت الاستعمار، فلم تكن مصر تعبيراً جغرافياً قط ولكنها كانت دائما تعبيراً سياسياً منذ البداية وإلى النهاية [1].

المركزية:

لا جدال أن الدولة المركزية ملمحٌ مُلحٍ وظاهرة جوهرية في شخصية مصر، لا تنفصل عن ظاهرة الوحدة نفسها، فبقوة المركزية الجغرافية والوحدة الوظيفية وطبيعة الري في البيئة الفيضية، وبرغم الامتداد الطوليّ الخطيّ فرضت المركزية السياسية والإدارية ثم الحضارية نفسها فرضاً في شكل حكومة طاغية الدور فائقة الخطر، وبيروقراطية متضخمة متوسعة أبدا وعاصمة كبرى صاعدة، منذ الفرعونية وحتي اليوم، بحيث أصبحت رباعية: المركزية، الحكومة، البيروقراطية، والعاصمة أطرافاً أربعة لمشكلة واحدة مزمنة [2].

الطغيان:

كانت السمة الأكثر سلبية في شخصية مصر هي تحول المركزية الي استبداد فطغيان، وهما حقيقة واقعة في تاريخ مصر من بدايته الي اليوم، مهما تبدلت الواجهات والشكليات، ويمثل كل ما ذكر من ملامح شخصية مصر سلسلة متداعية من السمات الأساسية والخصائص البارزة في هذه الشخصية من الداخل أو علي مستوي الموضع، أما من الخارج أو علي مستوى الموقع فإن هذه الشخصية لا تقل في خصائصها تبلوراً وتميزاً وتفردا، لكن ملامح الموقع تعد أخطر مفاتيح شخصية مصر، التى يتمثل في تفاعل جوانب موقعها مع جوانب موضعها، إما في تلاقٍ وتلاقح، أو في تعارض وتناطح، وهو التفاعل الذي خرجت مصر منه وهي واسطة العقد.

(١)السابق ـ ص ٤٠ .

(٢)السابق ـ ص ٤١ .